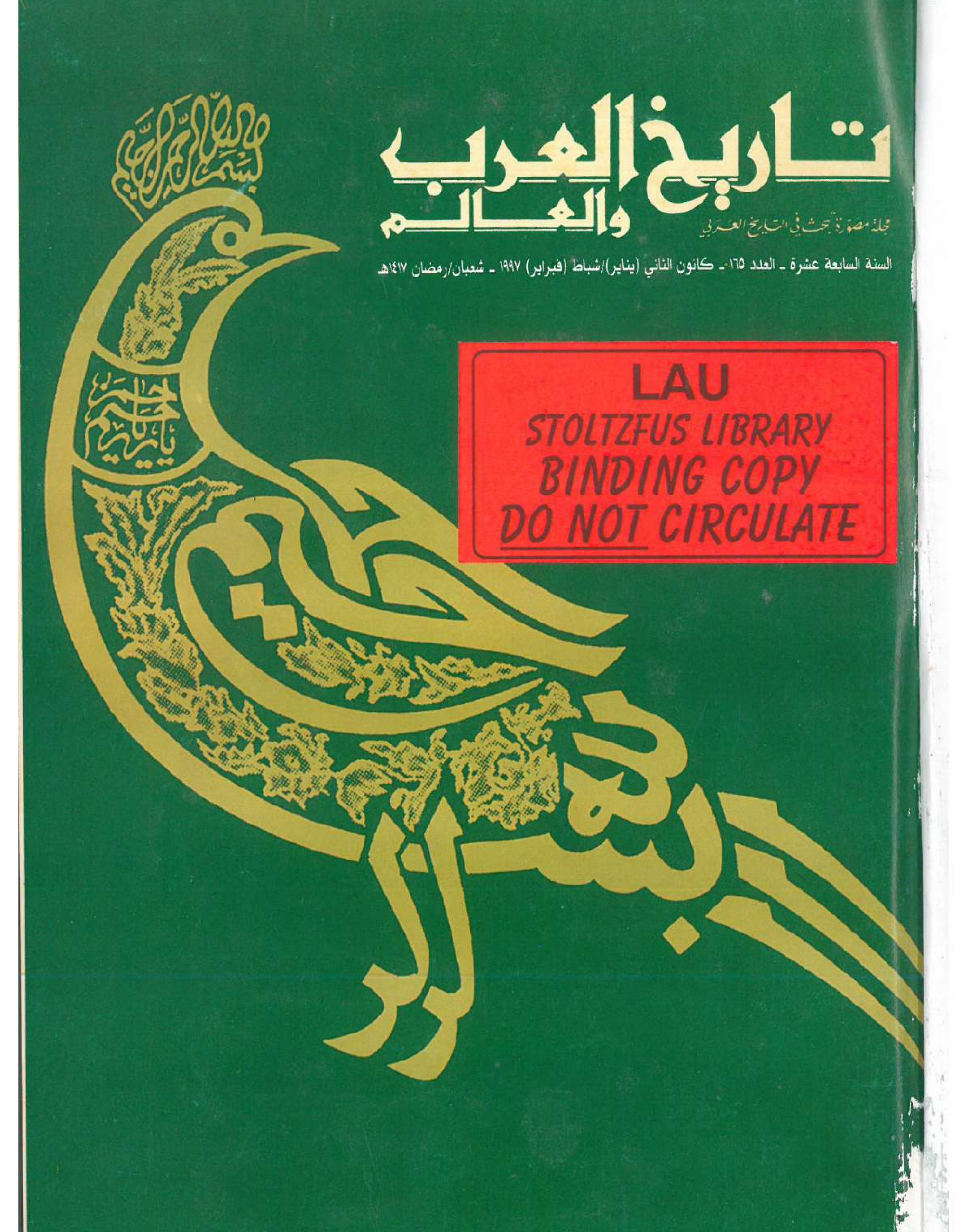

تاريخ العرب
والعالم
مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة السابعة عشرة ـ العدد ١٦٥ ـ كانون الثاني (يناير)/شباط (فبراير) ١٩٩٧ ـ شعبان/رمضان ١٤١٧هـ

تاريخ علم النبات عند العرب

د. محمد أمين فرشوخ

من مجموع ما وصلنا من رسائل وكتب، نرى العرب قد أضافوا تفاصيل ثمينة إلى ما ورثوه من كتب ديسقوريدس وجالينوس في علم النبات، وقد أسهم ذلك في تطور الحياة عامة، مما اقتضى استصلاح الأراضي، والعناية بأساليب الري، وبالمواشي، وبالأدوية لزوم المستشفيات والأطباء المتخصصين، فضلاً عن أن هناك فئة تضلعت في علم النبات خاصة، فقامت بأبحاثها حول التلقيح والغرس والتسميد..

ومن الأقوال السائرة عن العرب أنهم حين الفتح يهتمون بشيئين: «تنظيم الحقل وبناء المسجد». وأول من اهتم بترجمة كتب اليونان في علم النبات كان الخليفة العباسي المتوكل، وتابع الترجمة الناقصة هذه بعده، الخليفة الناصر الأندلسي، فكف من أضاف إليها الرسوم وأثبت المصطلحات..

وفضل بلاد الأندلس واضح في الكتابة حول النبات لما في أرضهم، وفي شمال أفريقيا من جنات، وأنواع من النبات، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك اهتمام شرقي، فقد كانت بغداد مسرحاً لمزارع تجريبية، فضلاً عن الحدائق التي عرفت فيها، كذلك في القاهرة، وفي دمشق وغيرها.. وفي الأندلس كان عبد الرحمن أول من أنشأ حديقة للنبات، فأرسل إلى بلاد الشام لإحضار البذور، وزرع أول نخلة بالقرب من قصره الرصافى.

وحول مضار النبات وفوائده، كثر اهتمام المسلمين، فأبدعوا، حتى طالبوا بفصل علم النبات عن علم الطب وعلم الصيدلة، إذ كان المهتمون به، من هذه الزاوية، يقصدون الحصول على الأدوية لمداواة المرضى. وهكذا أصبح علم النبات، على أيديهم، علماً له اختصاصيوه، وله مصنفاته المفردة، وإن بقي يردف باقي العلوم التطبيقية بالمصادر والمعلومات.

عرف طاش كبرى علم النبات فقال: هو علم يبحث عن خواص نوع النبات وعجائبها وأشكالها ومنافعها ومضارها، وموضوعه نوع النبات وفائدته ومنفعته للتداوي به.

وكتب النبات والزراعة حظيت باهتمام الباحثين الأوروبيين، فاستفادوا عبر إسبانيا منها، وترجموا واقتبسوا الكثير، وما زالت مخطوطات الباحثين المسلمين في علم النبات في مكتباتهم المنتشرة تلاقي الإكبار والتقدير، ويُعاد إليها لفهم النهضة الزراعية بعامة في بلاد المسلمين ولدراسة مرحلة مهمة من مراحل تقدم العلوم الزراعية والنباتية عبر الحضارة العالمية.

الأول: الاهتمام بالنبات من منطلق لغوي، وقد اهتم معظم الكتاب بذلك، فأشاروا في مباحثهم إلى أسماء النبات، وأصولها، ورتبوها في فصول تتناسب مع دراساتهم كالأصمعي والفراهيدي والتميمي المازني..

الثاني: دراسة النبات من وجهة الفلاحة، في معرفة الأراضي، والنبات، والخصوبة، والسماد. وفي هذا الباب يزاد ما يسمى «فلاحة الحيوان» أي تربية المواشي، والعناية بغذائها وأمراضها.

الثالث: دراسة النباتات الداخلة في صناعة العقاقير، وقد اهتم الأطباء والكيميائيون والصيادلة المسلمون بنباتات الجزيرة حيث عاشوا، أو بلاد المغرب، والأندلس، ومصر، أو الشام، قارنوا ووصفوا النبات وأزهاره وثماره وأوراقه.. ليركبوا العقاقير المناسبة لأمراض شائعة، ووصفوا ما أسموه «الأدوية المفردة».

الرابع: دراسات نباتية عارضة مثلت فصولاً في كتب الرحالة المسلمين، تتضمن ما اختبروه وما سمعوه حول النباتات.

وفي ما يلي صفحات منيرة من هذا العلم، في استعراض حياة علماء كبار فيه، ركزوا اهتمامهم على الفلاحة، أو الفوائد في استخراج الأدوية، أو التصنيف النوعي للنبات، أو الدراسات اللغوية حول أسمائها، أو الدراسات المقارنة في كتب الرحّالة، وفي ذلك كله محطات فاصلة في تاريخ الحضارة العربية.

ابن بصّال (من القرن الخامس الهجري)

يبدو أننا أمام عالم نباتي كبير، من مقاطعة أندلوسيا في جنوب إسبانيا، اشتهر بتجاربه المتنوعة في الفنون الزراعية، وتتلمذ عليه كثيرون من المشاهير في علمهم وكتبهم، ورغم ذلك لم يحظ المؤرخون والباحثون بما يثبت هويته، أو ما يحدّد سنة ولادته أو سنة وفاته.

وحول هذا الإبهام الذي يلف شخصية ابن بصّال كُتبت دراسات عديدة، نشير هنا إلى بعض مضامينها لنتعرف أكثر إلى صاحب الترجمة.

□ في مخطوطة للعشاب «أسين» تعود إلى سنة ١٠٨٥ ميلادية، يرد أن الكاتب قد تراسل مع ابن بصّال الذي كان في قرطبة أو إشبيلية بعد سقوط طليطلة بيد المسيحيين، ويشير إليه: «ابن بصّال العارف بالفلاحة علماً وعملاً لأنه كان مجرّباً خبيراً بالزراعة بارعاً فيها». ويشير في مكان آخر من مخطوطته فيقول: «وأنا قد رأيت هذا النبات في بلادنا في بستان السلطان وقد زرعه العارف بالفلاحة ابن بصّال الذي كان خبيراً بهذا الشأن».

□ ذكره البعض باسمه وبلقب «الحاج»، وأفيد أنه مرّ بمصر، وأنه رؤي في القاهرة، وفي صقلية.

□ كما ذكر أنه اعتنى ببستان المأمون صاحب طليطلة حين أنشأ جنّته على نهر التاجه قرب طليطلة وعهد برعايتها إلى الطبيب المشهور ابن وافد.

□ إذن كان ابن بصّال معاصراً لابن وافد، ولعله كان رفيقاً للزرقال وللقاضي صاعد.

□ تشير الدراسات الإسبانية، كما نُقل، إلى أن الكتب الزراعية التي وصفها علماء إسبانيا الإسلامية بلغت درجة عالية من الكمال، وكانت



□ رسم لنبتة زعفران في نسخة عربية من كتاب «المفردات الطبية» لديوسقريدس تحمل تاريخ العام ٦٢١هـ (١٢٢٤م).

تشتمل على تجارب غنية، ومقارنة للأصناف الزراعية ودراسة للخصائص النباتية، لذلك لا يُستغرب ظهور كثير من المؤلفات الزراعية والطبية في ذلك الوقت. وكان في هذه المؤلفات دائماً ذكر لابن بصّال، مع تقديره لابن بصّال «كتاب الزراعة» الكبير، موجود في مخطوطة عزيمان، وله ترجمة إسبانية تعود إلى القرون الوسطى.

ابن جلجل (من القرن الرابع الهجري)

هو أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسي، المعروف بابن جلجل، وُلد في طليطلة وتوفي في قرطبة.

درس ابن جلجل في قرطبة، ولم يغادرها، ألّف وعمل في حقلي الطب وعلم النبات، وكانت مؤلفاته جليلة في هذا الخصوص. توفي عن عمر ثلاث وثلاثين سنة، دون أن تتسنّى له شهرة كبيرة.

أشار المؤرخون العرب، والأندلسيون خاصة، إلى أن ابن جلجل كان طبيباً وشارحاً لعلم النبات والأدوية.

واتضح لنا أن اهتمامه كان منصبّاً على الأعشاب والنباتات، فمعظم الأدوية كان مصدره الأعشاب، والأطباء يفضلون العمل بأنفسهم عليها، ويكاد الطب والصيدلة أن يكونا علمين مشتركين حتى ذلك الحين.

قضى ابن جلجل حياته القصيرة في الدراسة والاستقصاء عن الحقائق، وقد ذاع صيته بعد عمله العلمي البحثي في كتب ديسقوريدس.

ولابن جلجل مؤلفات عديدة منها:

□ تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس (منه نسخة في مكتبة بنكبور في الهند تحت رقم ٢١٨٩).

□ مقالة في ذكر الأدوية التي لم يستعملها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعتها الطب. (منها نسخة في مكتبة بودليا بأوكسفورد تحت رقم ٥٧٣ عنوانها: استدراك على كتاب الحشائش لديسقوريدس).

□ مقالة في أدوية الترياق. (منها نسخة في مكتبة بودي بأوكسفورد تحت رقم ٥٧٣).

□ رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين، قيل إنها ضاعت.

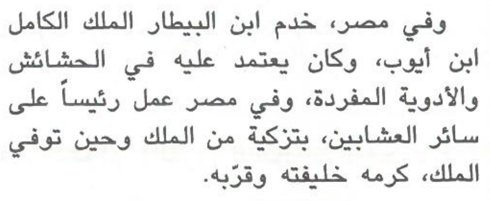
□ كتاب طبقات الأطباء والحكماء، ألّفه خدمة للعلم وطلابه، فاحتوى على تراجم كبار العلماء في حقلي الطب والصيدلة، والكتاب هذا مرجع في هذا الحقل للعالم كله، نقل عنه المؤرخون الشرقيون في كتبهم أمثال ابن القفطي وابن أبي أصيبعة.

ابن البيطار (من القرن السادس الهجري)

هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي، المعروف بابن البيطار. ولد في مالقة، على الساحل الأندلسي، وكان كثير الترحال، مات في دمشق عام ٦٤٦هـ (١٢٤٩م).

كان والده بيطرياً، تأثر به، إلاّ أن تأثره كان أكبر بأستاذه العشاب الشهير ابن الرومية، كان يصحبه إلى الريف فيعاينان النبات معاً.

رحل ابن البيطار إلى أقطار العالم الإسلامي المعروف، وزار اليونان في طريقه إلى المشرق، وبلاد الروم، فأخذ عن المسلمين، كما أخذ عن اليونان والرومان، وفي بلاد اليونان لقي مهتمين بعلم النبات، فاستفاد منهم، كما رافقهم لدراسة النبات في مواضعه، وفي المغرب قام بالعمل نفسه. ويقول ابن أبي أصيبعة أنه شاهده في دمشق ورافقه لمعاينة النبات في مواضعه، كما قرأ عليه ابن البيطار تفسيره لأسماء أدوية ديسقوريدس.



وفي مصر، خدم ابن البيطار الملك الكامل ابن أيوب، وكان يعتمد عليه في الحشائش والأدوية المفردة، وفي مصر عمل رئيساً على سائر العشابين، بتزكية من الملك وحين توفي الملك، كرمه خليفته وقرّبه.

ابن البيطار من أعظم علماء المسلمين بالنبات والعقاقير، طغت شهرته عليهم جميعاً في القرون الوسطى.

يقول فيه ابن أبي أصيبعة: «كنت أجد من غزارة علمه ودرايته، وفهمه شيئاً كثيراً جداً، وكنت أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وأمثالها في الكتب الجليلة في هذا الفن، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صححه في بلاد الروم، ثم يذكر جملاً مما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ويذكر أيضاً ما قاله جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بوالده، ويذكر أيضاً جملاً من أقوال المتأخرين ومن اختلفوا فيه ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته.

وأعجب من ذلك أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعيّن في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة».

كان ابن البيطار رجل علم، يستفيد من تجاربه ومعايناته الكثير، ولم يقتصر على الأدوية المفردة المستخلصة من النبات، بل كثيراً ما استخرجها من المعادن، ومن الحيوانات، وقد استفاد مما قرأ، ومن رحلاته الكثيرة، التي أتاحت له معاينات ميدانية مفيدة.

من كتبه:

□ شرح أدوية كتاب ديسقوريدس.

□ كتاب المغني في الأدوية المفردة، وهو مرتّب بحسب مداواة الأعضاء المريضة.

□ كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.



□ الزعرور.

□ كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام.

□ كتاب الجامع في الأدوية المفردة، مرتب بحسب حروف الهجاء ويتضمن كل ما سمعه من تصانيف الأدوية المفردة، للغافقي، والزهراوي، والشريف الإدريسي الصقلي، وابن جزله، والرازي، والمرشد النميمي، وابن باجه، وابن عمران، وابن ماسوسيه، وأبي حنيفة، وابن زهر، وابن سمحون، وابن وحشية..

□ الدرة البهية في منافع الأبدان الإنسانية.

ومنه هذه الأسطر حول العطارات والأشربة.

المسك

المسك العنبري ـ والعود ـ والجاوي ـ والكافور ـ المسك يقوي القلب والدماغ ـ والعنبر يقوي القلب والعود يقوي المعدة والروح ويصلح الكبد والعصب ـ والكافور جوهر حار يقطع الرعاف بقوة ويذهب الدفر.

العسل والأشربة كافة وطبائعها ومضارها ومنافعها

العسل الشهد الأبيض:

يولّد دماً حاراً وبلغماً رقيقاً – ويجلو ويطلق ويمنع من العفن ويهيج الصفراء ويعطّش، ويدرّ البول، وينفع المزاج البارد وينتزع رغوته بالغليان فيكثر غذاؤه.

السكر الجلاب:

النقي الخفيف يولّد خلطاً صالحاً وخلطاً مائياً وينفع الرئة والحلق والسعال ويهيج الصفراء (والسكر النبات) يصفّي ويحلّل السعال وينفع الصوت.

زنجبيل:

القويم التقي يولّد دماً رقيقاً ويلطّف ويفتح السدد ويضر بالباه ويحدث السعال.

شراب الورد:

الجيد المحكم غذاء جيد. يسهل الصفراء الرقيقة ويرطّب وفيه قبض وينفع من السعال وينوّم كالخشخاش.

وعن الثمار الرطبة، وطبائعها، ومضارها، ومنافعها، يقول ابن البيطار في الكتاب نفسه.

البلوط – مركب الكبار البالغ يغذي كثيراً.

يقوي المعدة ويعقل البطن وإذا انهضم غذّى كثيراً ويوافق المزاج الحار الرطب.

الزعرور – دم بلغمي:

يقبض ويزيل البخر والغثيان ويبطىء بالسكر ويقوي فم المعدة ويصلح الكبد والمزاج الحار ويهيج القولنج والبلغم ويغذي وهو عسير الهضم.

الزيتون – مركب – الكثير الدهن – بلغم مالح.

يقوي المعدة ويشهي الطعام ويوافق المزاج الحار ويضر الكبد (والأسود المملح) يولد دماً سوداوياً (والأخضر) أجود وأكلهما بالزيت أجود.

ابن العوّام (القرن السادس الهجري)

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي. لم يرد في كتب التراجم أخبار عن ولادته ووفاته، والمتواتر أنه عاش في القرن السادس الهجري، في فترة قلقة في بلاد الأندلس. فترة غروب الحضارة الإسلامية عنها.

عاش ابن العوام في اشبيلية، في منطقة الوادي الكبير، المزدهر بنباتاته المتنوعة، والمعروف بخصبه وازدهار الفنون الزراعية بين أهله.

اهتم ابن العوام بالفلاحة، فاتقنها وصنّفها علماً كاملاً، وحين عرّفها قال:

«معنى فلاحة الأرض هو إصلاحها، وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والرديء منها، ومعرفة ما يصلح أن يزرع، أو يغرس من الشجر والحبوب والخضراوات، واختيار النوع الجيد من ذلك، ومعرفة الموعد المناسب لزراعة كل صنف فيها وكيف يتعهده بالعناية والرعاية».

لولا ابن العوام ومن أتقن علم «الفلاحة» من علماء الأندلس المسلمين لما وصل هذا العلم برقيه إلى أوروبا بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي.

وفي هذا العلم بالذات استفاد العلماء المسلمون – وغيرهم – من نتاج ابن العوام



□ البلوط.

المميز، في التربة والأسمدة والحرث والسقي.. وقد نقل إلى اللغات الأجنبية مبكراً.

حاول ابن العوام، أن ينقل معارف الشرق إلى الأندلس، فتوفق، ولكثرة تجاربه وجرأته، عرف العرب – كما عرف الأوروبيون فيما بعد – خواص التربة وكيفية تركيب السماد، وأساليب الغرس والزراعة والسقي.

كتاب الفلاحة لابن العوام عظيم الشأن، ليس لاحتوائه على فنون الزراعة فقط، بل لكونه تتبع في الأندلس نظريات جديدة في الكيمياء والطبيعة، واختصر فيه علوم القدماء في الزراعة، فصار كتابه سفراً لا يستغنى عنه.

قسم ابن العوام كتابه في الفلاحة إلى قسمين كبيرين، يشتملان على خمسة وثلاثين باباً، يتناول في القسم الأول اختيار الأراضي والأسمدة والمياه، وصفة العمل في الغراسة والتركيب... وفي القسم الثاني يتناول الزراعة، وتربية المواشي وعلاجها.

وهذه بعض الأفكار من أبواب الكتاب الكبير:

في معرفة الأرض الطيب والوسط والدون – في ذكر الذبول – في ذكر أنواع المياه المستعملة في سقي الأشجار، والخضر، واستنباط المياه – في اتخاذ البساتين وترتيب غراسة الأشجار فيها – في صفة العمل في غراسة الأشجار المطعمة، والأبقال المدركة، واختيار أوقات الزراعات – في تركيب الأشجار المؤتلفة، والتركيب الرومي، والفارسي واليوناني – في تقليم الأشجار – صفة العمل في السقي، سقي الأشجار والخضر – علاج الأشجار والخضر من الأدواء والأمراض – دراسات في الفاكهة: الحلاوة، الترياق، ليوب الفاكهة، تدبير التفاح حتى يثمر في غير أيامه، ثمر السفرجل والكمثري والتفاح والبطيخ والقثاء، وصفات للعنب يطول بها حبه، ليكون عنقوداً ذا ألوان مختلفة، كيفية تدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى.

وفي الفلاحة: ما يريح الأرض – معرفة وقت الزراعة، صفة العمل في زراعة الرز، والذرة، والدفن، والعدس، والحمص، والترمس، والحلبة، واللوبيا، سقياً وبعلاً – في زراعة الكتان – في اتخاذ المباقل واختيار أرضها وكيفية العمل على زراعتها – في زراعة القثاء – في زراعة المنابت – في بعض الأدوية مثل الكمون والكراوية واليانسون والكزبرة – في زراعة الأحباق – في زراعة أنواع من النبات في الجنات – في فلاحة الحيوان – في اتخاذ الحمير والخيل، والإبل... في علاج بعض علل الدواب – في الحيوان الطائر – في اقتناء الكلاب..

«كتاب الفلاحة» لابن العوام، لم يحقق بعد تحقيقاً يرجوه كل مثقف ومتعلم، رغم أهميته النظرية والتطبيقية.

ولم يعرف غير هذا الكتاب لابن العوام، لأن بقية انتاجه ضاعت في غضون الفترة العصيبة التي عاشها في الأندلس.

الدينوري (القرن الثالث الهجري)

هو أحمد بن داوود، أبو حنيفة الدينوري، ولد في دينور من مدن إقليم همدان، وقضى فيها حياته، دارساً وعاملاً، تنقّل كثيراً، لكنه كان يعود دائماً إلى مسقط رأسه وفي دينور توفي عام ٢٨١هـ (٨٩٤م).

قال أبو حيان التوحيدي في الدينوري: «فإنه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، له في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم».

يعتبر الدينوري مؤسس علم النبات على التجربة والاستنتاج، قضى حياته في التأليف ففرض احترامه على معاصريه ومن تلاهم من العلماء، واعترف الجميع بفضله.

أسلفنا، حين تكلمنا عن الدينوري بين علماء الفلك، أنه اتقن الرياضيات والفلك وله في ذلك مؤلفات عددناها، كما أن له زيجاً سماه «زيج أبي حنيفة».

وفي النبات:

لقّب الدينوري بالعشّاب، لاتقانه هذا العلم، ومعرفته خصائص الأعشاب الطبية، من هنا دور كل من تعاطى هذه المهنة بصناعة العقاقير، «فكل نباتي كان طبيباً والطبيب كان عشاباً». والدينوري قبل ذلك هو عالم واسع الثقافة، مؤمن مشهود له، له في تفسير القرآن وفي الفقه كتب... فجمْعُه بين العلوم الشرعية والعلمية التطبيقية كان مميزاً لما كتبه، يفتش عن عظمة الباري، ويحقق في مخلوقاته، يقول ابن رشد: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله»، ومن يعمل في العلم، عموماً، يزداد طبعاً، إيماناً بالله ودعوة لدينه.

لأبي حنيفة الدينوري «كتاب النبات»، المرجع الكبير لعلم النبات عبر العصور الإسلامية وبعد أن ترجم، صار في أوروبا مرجعاً مهماً أيضاً.

جمع الدينوري في كتابه خبرات من سبقه، وجعله موسوعياً يتضمن تاريخ النبات تفصيلياً، وجهد كي لا يترك نبتة لا يعرّف بها، استقصى، وبحث، وجرّب، وقارن، واستنتج.. فسجّل أسماء النبات عند العرب، وفنّد علمياً ما توصل إليه عن كل نبتة، ففي كتابه ثروة لغوية، وتاريخية، وعلمية، ووثائقية.

اعتمد الباحثون في النبات، وكافة العلماء المحتاجين لهذا العلم على كتاب الدينوري، وقد أجمعوا جميعاً على أن أبا حنيفة الدينوري هو أوّل من ألّف من العرب والمسلمين في هذا العلم.

والكتاب في ستة مجلدات، إلاّ أنه مفقود، وهو موجود متفرقاً في كتب كثيرة، علمية ولغوية وتاريخية، ونذكر أنه ورد في دائرة المعارف الإسلامية أن «لوين» قد نشر في ليدن عام ١٩٥٣ قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات للدينوري. ونرى أنه يجب بذل جهد كبير لجمع هذه المتفرقات من الكتاب.

وفي ندوة خاصة عن تاريخ العلوم عند العرب، نشر الباحث د. محمد حميد الله أنه استطاع جمع ١١٢٠ اسماً من أسماء النبات التي وردت منسوبة إلى كتاب الدينوري من كتب أخرى. وأكّد أن الدينوري هو أول من صنّف في علم النبات من المسلمين.

يقول ابن أبي أصيبعة:«.. إنه عالم في الحيوان والنبات»، ويشير أبو محمد بن الحصين أبو بكر بن زهر أنه درس في كتاب أبي حنيفة وقراه على أبيه قبل أن يكتب هو، كتابه في النبات، والذي يعتبر أشهر كتاب في هذا العلم.

يشير الباحثون إلى أن الهدف من كتاب الدينوري، كما رغب واضعه، هو الاهتمام بما

ورد في التراث الأدبي واللغوي عن النباتات في بلاد العرب. لذا اقتصر الكتاب على النباتات التي تنبت في البلاد العربية، من أصيلة أو هجينة، وهو لعصره، كان دائرة معارف كبيرة واضحة. ويقول أحد المؤلفين في هذا المجال: «يبدو أن أبا حنيفة نباتياً أكثر منه طبيباً»، وما ذلك إلاّ لتركيزه على وصف النبات دون إشارة إلى الفوائد الطبية إلا القليل النادر، ثم إن أبا حنيفة كان يستشهد على آرائه ومعلوماته النباتية بما ذكره قبله العلماء أو الشعراء العرب.

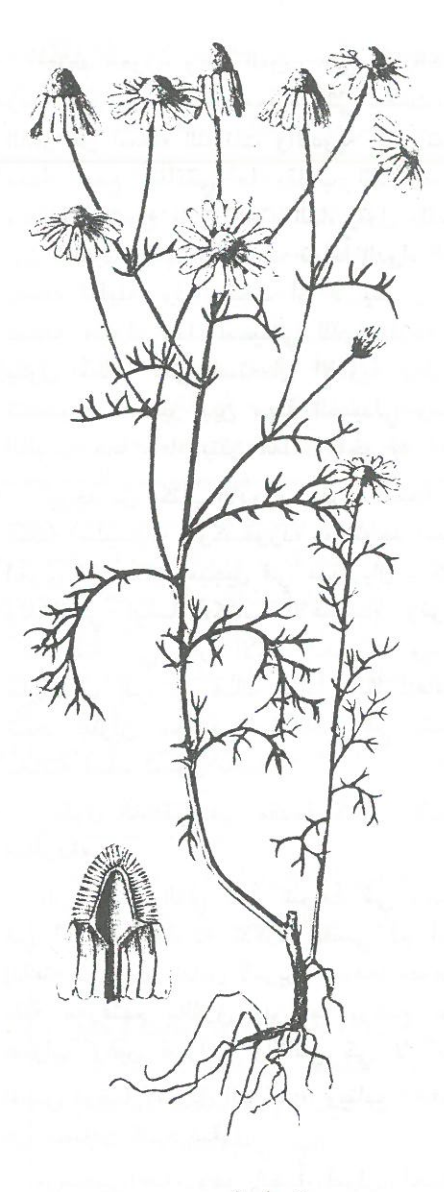
أما عن «علمية» الكتاب، فيكفي الإشارة إلى أنه أضاف إلى الأسماء وتاريخها ولغتها، ما توصل إليه من معلومات عن غذاء النبتة، ومناخها، وتربتها، وتركيبها، وتحدث عن نموها، وتصنيفها، «فهناك نباتات نزع ليقتات الناس بها، ونباتات برية، ونباتات تثمر ما يؤكل»، ثم هناك كلام عن أقسام النبات حسب أماكن وجودها، وطبيعتها وخواصها، وقيمتها الاقتصادية.

الغافقي (القرن السادس الهجري)

هو أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي الأندلسي، ولد في غافق على مقربة من قرطبة، في عصر الفوضى التي عمّت الأندلس، «ففي هذه الفترة ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس، واستأثر بمهام الدولة فئة من المتعصبين الذين اضطهدوا أحرار الفكر... فجمدت الحركة الفكرية ومال الناس إلى التستّر..».

أجمعت كتب التراجم على أن الغافقي كان من كبار الأطباء والنباتيين في بلاد الأندلس، كرس حياته للعمل والتأليف، ونال شهرة واسعة في علم الصيدلة الذي وضع فيه كتابه المرموق «كتاب الأدوية المفردة».

درس الغافقي ما سبقه إليه ديسقوريدس



□ بابونج.

وجالينوس، قبل أن يعمد بنفسه إلى الاستقصاء والمقارنة والتأليف في علم النبات.

وحين صنّف كانت لغته واضحة، واسلوبه سهلاً، وقد أمعن في دراسة كل عشبة، مستقصياً حالاتها في كل تربة، وكل زمن، مفصلاً في منافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها.

اعتمد العرب، وغير العرب على هذا الكتاب زمناً، فهو من الكتب المميّزة التي جمعت هذا القدر من أسماء النباتات والأدوية التي تعمل منها، جمع الغافقي ما يقارب ألف صنف وصفها وشرح طرق استعمالها، يقول بنفسه: «إن الطبيب يجب أن يعرف تماماً الدواء الذي يصفه لعليله، ولكن يجب أن لا يتدخل في صنعه فيترك هذا للصيدلي الذي يلزمه أن يكون مُطلعاً على استعمال الأدوية وطريقة تحضيرها». فميّز بين مهنة الصيدلي ومهنة الطبيب، مما جعله يتقن عمله ويفخر به.

يوجد من «كتاب الأدوية المفردة» نسخة في مكتبة اسليسيانا باوكسفورد، كما توجد نسخة أخرى في مكتبة ميجيل في مونتريال ـ كندا. وللغافقي أيضاً «كتاب الأعشاب» وتوجد مخطوطته في دار الآثار العربية، ويشير مايرهوف إلى أن هناك كتاباً ثالثاً للغافقي تحت عنوان «جامع المفردات» في نسخة بمكتبة أحمد تيمور باشا.

يقول الغافقي في مقدمة كتابه «الأدوية المفردة».

«إن الكتاب الدي كنتُ شرعتُ في وضعه في الأدوية المفردة تذكرة لنفسي لم أحب إذاعته في أيدي الناس لأمرين: أحدهما معرفتي بقلة معرفتهم بالفرق بين ما يوضع على صواب وغير صواب، والثاني كي لا أحيّر نفسي غرضاً لأقاويل الحسّاد». ويتابع الغافقي عن مصادر كتابه فيقول:

«ومذهبي فيه، وهو أيضاً، أمران: أحدهما الجمع بين أقاويل القدماء والمحدثين في هذا الفن، والثاني شرح الأسماء المجهولة، وهذان الغرضان وإن كانا قد تقدم فيهما خلق إلاّ أنني لم أجد فيهم باحثاً عن حقيقة وضعه، بل أكثرهم مقلدون في غلطهم لأقدمهم، ومنهم من غلط في الجمع بين الأقاويل كما فعله ابن وافد حيث جمع بين كلامي ديوسقوريدس وجالينوس في دواءين ظنهما دواء واحداً، ومنهم من كذب كما فعل ابن سينا حيث يحكي عنهما ما لم يقولاه».

الوسن: نبات خشن يستعمل في وقود النار ذو ساق واحدة. وله في أصول الورق ثمر في شكل الترمس ذو طبقتين فيه بزر إلى العرض وينبت في مواضع جبلية وأماكن وعرة. يظن أنه يبرىء من عضة الكلب الكلِب وإذا علق في بيت حفظ صحة ساكنيه وإذا شرب طبيخه يسكن البرد إذا كان بلا حمى وكذا إذا أمسك باليد ونظر. ويسمى بهذا الاسم لأنه ينفع من نهشة الكلب الكَلِبْ نفعاً عجيباً بخاصية جملة جوهره. قوته يجفف باعتدال ويحلل ويجلو وقال في الأدوية المقابلة للأدواء عن ديموقراطس. هذا النبت يشبه الفراسيون إلا أنه أخشن منه وأكثر شوكاً كما يدور ويخرج شوكه مدورة يضرب إلى الحمرة الكبدية وينبغي أن يلتقط هذا الدواء في وقت طلوع الشعرى العبور ويجفف ويدق وينخل ويخزن، ويسقى منه من عضّة كلب كَلِب بمقدار ملعقة بأربع أواق ونصف ماء العسل. هذه الحلية غير ما ذكره ديوسقوريدس. وقد رأينا هذا النبات على ما وصفه جالينوس عن ديمقراطيس فأما الذي ذكره فهو نبات يسمى عندنا الهارة ويسمى أيضاً القارة (انظر ابن البيطار) وليست صفته على ما ذكره في كل شيء. وهو نبات يخرج قضباناً كبيرة ممدودة من أصل واحد عليها ورق أكبر قليلاً من ورق المردنجوش وهي متكاثفة على الأغصان منحنية إلى خلف مشروخة متوارية مائلة إلى أسفل، ولونها مع الأغصان إلى البياض وعند كل ورقة حب في قدر بزر الكزبرة فكأنه من دوح واحد أبيض عليه زغب في جوفه حبة سوداء في قدر بذر العنب. وهذا النبات ينقي المرة السوداء ويقوي القلب وينفع من عضة الكَلْب الكَلِبْ. وأيضاً نبات آخر يشبه الشبت كثيراً في ساقه وورقه ورائحته ينبت في أرض رقيقة ذات حجارة وله أصل طويل كالسلجم الطويل أو الجزر وطعمه حلو مع حرافة كثيرة. قدر درهمين من ماء لحاء شجره مع لبن حليب يقيء المعضوض من كلب كَلِب ويشفيه ولو

فزع من الماء وأشرف على الهلاك. وأيضاً نبات له قضبان تشبه قضبان المثنان وورق طويل قليل العرض حديد الأطراف غليظ أخضر ناعم كثير متكاثف في أطرافه. زهره في هيئة النواقيس لونه إلى الغبرة والحمرة مائل إلى أسفل شديد المرارة.

بابونج: أنثاميس وقد يسمى لوقانثيمون وإيرانثيمون أي يزهر ربيعاً وخاما يميلون أي تفاح الأرض وميلانثيمون وخر وسُقاليس أي الذهبي وقاليس. وهو ثلاثة أصناف والفرق بينهما إنما هو لون الزهر فقط وله أغصان طولها ذراع وأقل وفيها شُعب دقاق وورق صغار دقاق ورؤوس مستديرة صغار في باطن بعضها زهر أبيض وفي بعضها زهر ذهبي وفي الذي يظهر عنه من الزهر على الرؤوس يظهر باستدارة حولها ولونه يكون أبيض وأصفر وفرفري وهو في قدر زهر السذاب وينبت في أماكن خشنة وبالقرب من الطرق ويقلع في الربيع ويجمع. وقوة هذا النبات وعروقه وزهره مسخنة ملطفة والفرفري أقوى في تفتيت الحصاء والأبيض والأصفر أقوى في إدرار البول. ويسخن في الأولى ويرخي ويحلل ويوسع المسام.

جُمّيز: يسمى به التين الذكر ويسمى به صنف أخر من التين. سيقدمورون أي التين الأحمق وإنما سمي بهذا الأسم لأنه ضعيف الطعم وهي شجرة كشجر التين بها لبن كثير جداً ورقها كورق التوت وتثمر ثلاث مرات أو أربع في السنة وليس يخرج ثمرها من فروع الأغصان كما يخرجه ثم التين بل من سوقها كما يخرج التين البري وهو أحلى من التين الفجّ وليس فيه بزر في عظم بزر التين وليس ينضج دون أن يشرط بمخلب من حديد. وينبت كثيراً في بلاد قاريا ورودوس وفي المواضع التي تكثر فيها الحنطة. وقد ينتفع بثمره في سني الجدب لوجوده في كل وقت. وهو يسهل ردى للمعدة واللبن المستخرج من ثمرته في الربيع يلصق الجراح يحلل الأورام. وقد يكون في جزيرة قوبروس في عظم الإجاص وهو أحلى منه يشبه الجميز في سائر الأشياء.

الشريف الإدريسي (٤٩٣ ـ ٥٦٠هـ) الجغرافي العربي الشهير، له في علم النبات باع طويل، صنف في الصيدلة وعلم النبات، وله الكتاب الشهير: «الجامع صفات أشتات النبات» منه:

كتاب ذياسقوريدس اليوناني الذي وضعه في الأدوية المفردة، من نابت وحيوان ومعادن، فجعلته مصحفي، وأوقفت عليه نظري، حتى حفظت من علمه جملة بعد أن بحثت ما أغفله، وفتحت أكثر ما أقفله فوجدته مع ذلك ترك أدوية كثيرة لم يذكرها كاهليلج الأصفر والهندي والكابلي، والخيار شنبر والتمر الهندي والبليلج والأملج، والخولنجان، والقاقلة الكبير والجوزبوا، والكبابة والقرنفل، والزرنباد، والدرونج، والبهمن الأبيض، والأحمر، والفوفل، والطباشير والتنبل، والأمير باريس، والهرنوة، والقليقلي، والمحلب، والنارجيل، والنارنج، والليمون، وبستان افروز، والبلاذر، والياسمين، والخيزران، والكافور، والكنكر، والشيان، والصندل، والبقم، والساج، والموز، والخيار، والياقوت، وحجر الماس، وحجر البازهر، وحجر البهت، وجوز جندم، والقنبيل، وشجرة الكف، والماهي زهرة، والريباس، والجلبان، والماش، والاسفاناخ، والطرخون، وحب الزلم، والورس والكركم، والكرات، وغير هذه من الأدوية كثيرة، أغفل ذكرها، إما أنه لم يبلغه علمها ولا سمع عنها، أو كان ذلك ضنه من يونان أو تعمداً، أو لأن أكثر هذه ليست في شيء من بلاده.